الاشبال ... وعبور الحلم الفلسطيني

علي زين العابدين الحسيني

في عام ١٩٦٤ ، وخلال انعقاد مؤتمر الاتحاد العام لطلبة فلسطين في غزة ، وقف صحفي أمريكي يشاهد طلاب المدرسة الاعدادية في معسكر الشاطىء ، وهم ينشدون امام علم فلسطين نشيد « عائدون » . وعندما ترجمت له كلمات النشيد أبدى دهشته لان هؤلاء الاطفال الذين ينشدون قد ولدوا في مخيم الشاطىء ، « فلأين ولماذا يعودون اذن ؟ » ويومها اصر ذلك الصحفي على توجيه سؤال للتلاميذ الصغار في احد الفصول: « عائدون لماذا ولأين ؟ » .

ووقف احد هؤلاء الصغار يحاول الاجابة على هذا النحو : « قل له اننا نريد ان نعود لكي .... » وتوقفت الكلمات — بدون تلعثم — في حلق الصغير :

ومرة اخرى يبدأ الصغير : « قل له اننا نريد ان نعود لكي .... »

ويرتعش الصوت ، فيتوقف الصغير ، ويبدو اصراره على الاجابة فيعود بصوت يغص بالبكاء : « قل للامريكي اننا نريد ان نعود لكي ... » و.. ينفجر الصبي الصغير في بكاء حار يهتز معه جسده النحيل فيتحول الصمت — الذي ران لحظة على الفصل — الى مظاهرة تضج ببكاء الصغار .

— « انها اجابة دقيقة عن الوطن » .

لم يقدّر لهؤلاء الصغار رؤية الوطن ، ومع ذلك كانوا يحسونه ويعرفونه ، يحفظونه عن ظهر قلب . الاطفال الذين نزحوا مع ذويهم عام ١٩٤٨ احتفظوا بحشد عظيم من الحقائق والتفاصيل عن الوطن شكلت في خيالهم خريطة الوطن .

اما هؤلاء الذين ولدوا في الشتات فقد عرفوا الوطن من خلال عملية السرد الليلي واليومي التي كان الاباء والامهات والمسنون يحرصون على القيام بها ، كما لو كانوا يقدمون لصغارهم « كشف اعتذار » عن الحياة المريرة التي يعيشونها ، وعن الوضع المذل لواقعهم . وليحفروا في ذاكرة الصغار صورة ذلك الوطن الذي لا يشبه المخيمات . ويمتلىء بالرموز والتفاصيل الزيفية والجبلية والمدنية والبطولات والاعراس ، حتى صار لدى كل طفل فلسطيني « فلسطينه الخاصة » التي يحلم بها : « كان لنا بيارة كبيرة » ، « كان بيتنا واسعا اكبر من هذه الغرفة بعشرين مرة » ، « كانت كلمتي مسموعة في البلد » ، « لم يقصدني احد في حاجة الا وقضيتها له » .

كان الطفل يصغي ، ويحلم بفلسطين « جميلة ، مليئة بالاشجار ، بدون اكواخ بيوتها واسعة ، واسعة . الكل يأخذ من الكل ، بلا طوابير تموين وبلا شوارع ضيقة ، ورائحتها مثل رائحة الياسمين وازهار اللوز والبرتقال » . وهكذا أصبح حضور فلسطين في وجدان الصغير حضورا عاطفيا ، ورومانسيا ، ومأساويا في الوقت ذاته.

لقد كانت تلك الحكايات عن الوطن تنعش نفسية الطفل الفلسطيني وترطب واقعه